تداولية أسلوب الالتفات في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني

The deliberation of paying attention in the book of the mayor by Ibn Rashiq al-Qayrawani

حليمة مسعي*

سهلي رشيد♣

تاريخ الإرسال: 2021/01/20	تاريخ القبول: 2021/05/17	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

أسلوب الالتفات من الأساليب التي اعتمدها العلماء والأدباء منذ القدم سواء في الشعر أو في النثر، وقد حظي باهتمام علماء البلاغة والنقاد، وعدّوه فعلا تأثيريا على نفسية المتلقي، وإستراتيجية حجاجية تعمل على تنشيط السامع وإيقاظه وإقناعه، وممن تناول الالتفات من القدامى واهتمّ به ابن رشيق في كتابه العمدة، حيث حمل في طياته مقومات تداولية تبعث على الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ومن غرض إلى آخر بغية التوجيه والتأثير والإقناع.

الكلمات المفتاحية: تداولية المتكلم والمخاطب، المقام، أسلوب الالتفات، ابن رشيق، كتاب العمدة.

Abstract:

the method of pay attention is one from the methods that is adopted by scientists and writers from the past , whether in poetry or prose and he has attracted the attention of the elequent and critics ,and has already considered him to be an influence on the recipients psyche and an agritic strategy that stimulates, illuminates and persucutates the hearing, among

حليمة مسعي: h.messai@univ-tebessa.dz

* جامعة العربي التبسي –تبسة، h.messai@univ-tebessa.dz

♣ جامعة العربي التبسي –تبسة، sahlirachid21@yahoo.fr

those who look at attention from the old and take care of him is : ibn rashik in his book:el omda, where he worked in its fold trading pragmatic that stimulate the transition from one style to another and from purpose to another in order to influence and persuade.

***Key words**: pragmatic speaker and listener, situati paying , attention, ibn rashik, book el omda.*

*** *** ***

. مقدمة:

لقد تجلت وظيفة الالتفات في كتاب العمدة من خلال دراسة ابن رشيق لإستراتيجية ينتهجها المتكلم لتوجيه سلوك المتلقي حسب الوجهة التي يبتغيها، حيث يعد هذا الفعل الكلامي التأثيري سببا مباشرا في توجيه وإقناع المتلقي، فيترك بذلك أثرا يهيؤ المخاطب نفسيا لقبول قضية معينة أو رفضها انطلاقا من الاعتقادات السابقة والتصورات القبلية، وقد استعرض ابن رشيق للعديد من الأساليب اللغوية المختلفة التي يتبعها المتكلم والتي تعتبر إستراتيجية حجاجية ونتعرض في هذا الجزء إلى أسلوب يعمل على تنشيط السامع أو القارئ ويوقظه من غفلته، لأن نفسية المتلقي دائما تحب التجديد فإذا نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب مغاير من أجل لفت انتباه السامع واستمالته شريطة أن يكون هذا الأسلوب تعتريه الإبداعية في التعبير والانتقال وحسن الذوق، حيث إن في تنوع الأساليب والكلام إفادة وتأثير في السامع ونورد هنا أهم الأساليب التي تحدث عنها ابن رشيق في كتابه "العمدة".وقد اندرج هذا البحث تحت جملة من الإشكالات :

- إلى أي مدى ركز ابن رشيق في كتابه على عناصر التداول في البلاغة العربية؟ وهل التفت إلى دور المقام والسياق في العملية التواصلية؟
- إلى أي مدى يمكن إبراز نهج وطريقة ابن رشيق في كتابه "العمدة" لدراسة المقاصد وأسلوب الالتفات ودوره في معاني الكلام؟

وتكمن أهمية هذا البحث في الكشف عن المقاربة التداولية مع التراث العربي وما يزخر به من معارف وآليات بلاغية، بالإضافة إلى التأسيس للبعد والفكر التداولي في بلاغة ونقد ابن رشيق وإثبات أن العناصر التواصلية لم تكن المعطيات الوحيدة التي قدمها واعتمد عليها ابن رشيق في كتابه، حيث ركز على الشاعر وصفاته وآدابه والمرتكزات التي يجب أن يقوم عليه شعره واهتمامه بأحوال السامع ومقاماته.

1. تداولية المتكلم في البلاغة العربية:

للمخاطب دور بارز في التراث العربي القديم باعتباره المنتج لعملية الخطاب، ولأنه الركيزة التي ينطلق منها الخطاب والمقاصد، وهو الذي يحدد الدلالات والألفاظ وهو السبب في إقناع الطرف الآخر، وهذا الأخير كان نقطة تباين وخلاف بين الدرس العربي بشكل عام وبين اللسانيات الحديثة، حيث قامت هذه الأخيرة في بادئ الأمر بإهمال هذا العنصر المهم وهو المتكلم وتمركزت دراستها حول بنية اللغة الداخلية البعيدة عن كل السياقات الخارجية والأطراف الإنسانية المحيطة بها ومن ضمنها المتكلم، وظلت على هذه الحال عقودا طويلة حتى جاءت نظرية تشومسكي وتضمنت انتقادات حول المنهج البنيوي وعارضت فكرة انغلاقها على اللغة، كما ساندته في ذلك فلاسفة اللغة، ومن ثم انطلقت فكرة الاهتمام بالطرف الغالب في عملية التخاطب، ألا وهو المتكلم، ولكن بالنظر إلى الدرس العربي، وبخاصة البلاغي كان منذ بداياته يهتم ويراعي العناصر المشكلة والمساهمة في الخطاب، حيث تعددت أشكال الاهتمام به.

حيث نلحظ في كتاب العمدة لابن رشيق أن ينطلق من الطرف الأول في العملية التواصلية الإبداعية ألا وهو "الشاعر" فيهتم بإبداعاته وانتقائه لأحسن الألفاظ ومعانيها لجلب المتلقي وإقناعه والتأثير فيه، فالمخاطب يعتبر الذات المحورية في إنشاء الكلام لإبلاغ المتلقي مراده وإفادته.

ونجد ابن رشيق يحدد مجموعة من الخصائص للشاعر، إذ سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه، وزيادته فيما أجحف ولاختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، وزيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص أطاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير[1]. فالشاعر المرهف الحس، ذو الفكر الراجح والعقل المتزن الذي يصور لنا حقيقة الواقع النابع من صدقه، كل هذا يساعده في موهبته الفنية وإبداعه، فالتوظيف الحسن والمتميز للألفاظ يجعل الشاعر –حسب ابن رشيق- يستحق هذا اللقب حقيقة ليس مجازا.

ونجد أيضا من مظاهر عناية ابن رشيق بالمتكلم وآدابه، حيث يقول: من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل، حسن الأخلاق، طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطيء الأكناف، فإنّ ذلك ما يحبّبه إلى الناس ويزيّنه في عيونهم، ويقرّبه من قلوبهم، وليكن مع ذلك شريف النفس، لطيف الحسّ، عزوف الهمّة*، نظيف البزّة، أنفا، لتهابه العامة ويدخل في جملة الخاصة فلا تمجه أبصارهم، وإلا فهو كما قال ابن أبي فنن واسمه أحمد:

وإنّ أحقّ الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

كما حرص ابن رشيق على وجوب إلزام الشاعر مبدأ التواضع، وأن يعرف حق من فوقه من الشعراء».[2]

كما اتخذ ابن رشيق القصد/ النية جوهرا للشعرية وأحد ركائزها، و أكّد على أنّ المقصدية تؤثر تأثيرا بالغا في المتلقي وتعمل على تحريك عواطفه.

2. تداولية المخاطَب عند ابن رشيق:

يعد المخاطب (السامع) الطرف الثاني في عملية التخاطب، وعلى أساس هذا الأخير يحدد المخاطب رسالته (خطابه) فيرسم بذلك إستراتيجية تتناسب وقصده وتراعي حال مخاطبه ومشاعره كل يضمن لكلامه الفائدة، ومن مظاهر عناية ابن رشيق بالسامع في كتابه العمدة اهتمامه بمبدأ القصد والنية ومطابقة الحال وقد قيل: «لكل مقام مقال: وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده وأمور ذاته من مدح وغزل ومكاتبة ومجون وخمرية، وما أشبه ذلك».[3]

فهو يهتم أساسا بالمقام ومن ضمنه حال السامع فإذا تحققت المطابقة نتجت عنها الإفادة في الكلام، وبذلك فهو يشترط الإفادة والقصد، وهذا من مظاهر الدراسة التداولية عند ابن رشيق حيث يقوم على تأليف الشعر من طرف الشاعر في ضوء المقام وحسن النية والقصد والإفادة في حد ذاتها سمة تداولية تستند عليها اللسانيات التداولية في دراسة اللغة أثناء الاستعمال.

كما نجد عناية ابن رشيق بالسامع واهتمامه به في باب الالتفات وقد أعطى مثالا بابن المعتز في حديثه عن الالتفات بقوله «هو انصراف المتكلم من الإخبار إلى المخاطبة، ومن المخاطبة إلى الإخبار»[4]. أي مراعاة الطرف الآخر وهو السامع وإبلاغه وإخباره بمراده،

بمعنى أن بناء المتكلم لكلامه هو فعل يقوم على إعطاء أهمية للسامع و التأثير فيه، وابن رشيق في إشارته هذه لا يبتعد عما جاءت به اللسانيات التداولية في عنايتها بالسامع وإفادته بالإخبار والتأثير فيه.

ولكي يصل الشاعر لمقصده عليه توخي بعض الخصائص والصفات التي تجعله يدرك التمايز بين أغراض الكلام ولتحقيق ذلك «يجب للشاعر أن يكون متصرفا في أنواع الشعر: من جد وهزل، وحلو وجزل، وأن لا يكون في النسيب أبرع منه في الرثاء، ولا في المديح أنفذ منه في الهجاء، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار، ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتا في سائرها ، فإنه متى كان كذلك حكم له بالتقدم، وحاز قصب السبق كما حازها بشار وأبو نواس بعده»[5].

فقدرة الشاعر على التنويع ووضع الأمور ما يلائمها وما يتناسب معها وبراعته وفطنته يجعل هذا من الشاعر شاعرا حقيقيا، لأنه بذلك يدرك المقامات والمناسبات فيعطي لكل ذي حق حقه، فرؤية ابن رشيق للتنويع بين أغراض الكلام (الجد والهزل) مثلا يضمن له انجذاب واستحالة المتلقي إلى النصب، وبالتالي فالتنويع بين الأساليب بالنسبة إليه دافع قوي لنجاح عملية التخاطب والتفاعل بين المتكلم والمتلقي.

ونجد أيضا اندفاع ابن رشيق إلى الاهتمام بمسألة التوضيح قائلا: «سبيل الشاعر –إذا مدح ملكا- أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكر للممدوح .... وبلغ مراده»[6].

فمراعاة مقام المتلقي وحالته النفسية تستوجب التوضيح والبيان لإفادة المتلقي فجعل بذلك الشاعر يبلغ مقصده من مدح الملوك، بترك إيقاع النصب في نفوسهم والتأثير فيهم والتفاعل معهم، فيحصل الرضا والتجاوب.

أما ما يتعلق بمدح الوزراء والكتاب، فإنه يتوجب على الشاعر أن يوظف –حسب نظرة ابن رشيق «ما يناسب حسن الرؤية وسرعة الخاطر بالصواب وشدة الحزم، وقلة الغفلة وجودة النظر للخلفية والنيابة عنه في المعضلات بالرأي أو بالذات... وبأنه محمود السيرة حسن السياسة، لطيف الحس، فإذا أضاف إلى ذلك البلاغة والخط والتفنن في العلم، كان غاية».

معنى ذلك أن لكل ممدوح ما يناسبه من مدح ومن انتقاء اللغة والألفاظ والصفات التي تتفق مع المقام، كل هذه التبريرات المقدمة من ابن رشيق، بغية الدفاع عن

الشعراء، وربما لأنه في حقيقة الأمر كان يدافع عن نفسه، لأنه كان شاعر بلاط وصاحبا لأميرين هما: المعز بن باديس الصنهاجي وابنه تميم، ولهذا ما برح ابن رشيق يدافع عن الشعراء ويبين أن هناك فرقا في من يمدح ملكا وفيمن يمدح سوقة.

الأمر نفسه ينطبق على مدح القضاة، لما يناسب مقاماتهم العلمية والدينية ومن ثم على الشاعر «أن يمدح القاضي بما يناسب العدل والإنصاف وتقريب البعيد في الحق، وتبعيد القريب والأخذ للضعيف من القوي والمساواة بين الفقير والغني وانبساط الوجه، وبين الجانب وقلة المبالاة في إقامة الحدود واستخراج الحقوق، فإن زاد ذلك ذكر الورع والتخرج وما شاكلها، فقد بلغ النهاية»[7].

فابن رشيق يدعو بهذا القول إلى إدراك الفروقات الموجودة بين الممدوحين من حيث المنزلة والمرتبة الدينية والسياسية والاجتماعية من أجل إيصال المقاصد التي بني من أجلها النص.

فتناول ابن رشيق المقاصد المختلفة للأغراض الشعرية وفقا للفروقات الشخصية ووفقا لمكانة المتلقي تجعلنا ندرك نقاط التلاقي مع اللسانيات التداولية في اهتمامها بالمقصدية كمبدأ أساسي في عملية التخاطب، فالنص موئل لتقاطعات عديدة بين المتكلم (المتلفظ بالخطاب) وبنية النص أو الخطاب والسامع وما يطرأ عليه من مقاصد المتكلم، حيث عد ركيزة أساسة في العملية التواصلية بواسطتها يتحقق الفهم والإفهام.

إن عناية ابن رشيق بعناصر الخطاب ومقاصد المتكلم والأغراض الشعرية جعلت من كتابه العمدة مجالا خصبا وثريا لإقامة لسانيات تداولية عربية تهتم بالمعنى وتتخذ من اللغة اللبنة والركيزة الأساسة للدراسة والتحليل أثناء الاستعمال، ذلك أن الذي يهتم بالمخاطب والمخاطب والخطاب والمقام ومقتضى الحال ومقاصد الكلام والإفادة كلها مؤشرات للدراسة التداولية ومفاهيم لها، ولابد له وأن يدرج ضمن الاهتمامات التداولية في التراث اللغوي العربي وبخاصة البلاغي منه، حيث تزخر البلاغة بآليات متنوعة وعديدة تحقق الترابط والانسجام والتضام داخل النص، ولذلك صرح **فان دايك (Van dijk)** بأن «البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص».[8]

3. المقام ومقتضى الحال:

تحدث العرب القدامى في جوانب عديدة عن مسألة المقام، واعتبروه مناسبة القول وملابساته ودعوا إلى ضرورة مراعاته والتقيد به في الخطابات، وهو من المفاهيم التي تربط بين التداولية الحديثة وبين فكرة مقتضى الحال في البلاغة العربية فيقول (صلاح فضل) في هذا الصدد: «ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال) وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال)[9]».

وقد أورد ابن رشيق هذه المقولة الشهيرة في كتابه فيقول: «وقد قيل: لكل مقام مقال، وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده وأمور ذاته من مدح وغزل، ومكاتبة ومجون وخمرية وما أشبه ذلك غير شعر في قصائد الحفل التي تقوم بها بين السماطين، يقبل منه في تلك الطرائق عفو كلامه، وما لم يتكلف له بالا، ولا ألقى به ولا يقبل منه في هذه إلا ما كان محككا، معاودا فيه النظر، جيدا لا غث فيه، ولا ساقط، ولا قلق، وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع»[10].

والمقصود من هذا القول أن الشاعر يجب أن يراعي المقام الذي هو فيه، فإذا كان مقام مدح لا يمكن أن يدخل فيه الذم، والشعر الذي يقدمه للملوك والأمراء ليس هو نفسه الذي يقدم للقضاة والفقهاء وذلك لاختلاف مراتبهم وطبقاتهم وعلمهم وثقافتهم، فكل مقام يستوجب خطابا معينا له مع مراعاة الحالة النفسية التي يكون عليها المتلقي، وفكرة المقام تداولية أساسا، حيث نتجت من الشروط التي يكون فيه الشعر أو الخطاب مطابقا للحال التي يستخدم فيها بين المتكلم والسامع ومختلف الظروف والملابسات التي تكتنف ذلك.

ومفهوم الحال لا يختلف عن مفهوم المقام «الذي يشمل مجموعة الاعتبارات والظروف والملابسات المحيطة بالنشاط اللغوي، وتؤثر فيه بحيث لا تتجلى دلالة الكلام إلا في ظلها»[11]. لذلك على الشاعر أن يختار الظروف والأوقات المناسبة ويتفقد أحوال المتلقي لكي ينشأ شعره فيقصد به ما يحبه ويتجنب ما يكرهه ويمدح من يريد مدحه وغيره، فلكل مقام مقال.

فنجده ابن رشيق يخصص حسب المقامات أبوابا عدة من بينها باب النسيب ويقول فيه: «حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها، قريب المعنى سهلها غير كز ولا غامض، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى، لين الإيثار، ورطب المكسير، شفاف الجوهر، يطرب الحزين ويستخف الرصين»[12].

ويقول النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد، وقال الحاتمي: «من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم، متصلا به، غير منفصل عنه»[13].

أما في باب المديح فيقول: «وسبيل الشاعر –إذا مدح ملكا- أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للمدوح وأن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية، ويجتنب مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل... ورأيت عمل البحتري –إذا مدح الخليفة- كيف يقل الأبيات ويبرز وجوه المعاني، فإذا امدح الكتاب عمل طاقته، وبلغ مراده»[14].

وفي باب الافتخار يقول أيضا: «الافتخار هو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار»[15].

ونجده في باب الرثاء يقول: «وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به، حيث مثل "كان" أو "عدمنا به كيت وكيت" وما يشاكل هذا، ليعلم أنه ميت»، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا»[16].

أما ما ورد في باب العتاب وذكر طرائقه، يقول ابن رشيق: «وللعتاب طرائق كثيرة، وللناس فيه ضروب مختلفة فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف، وقد يعرض فيه المن والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف»[17].

وفي باب الوعيد والإنذار، يقول: «كان العقلاء من الشعراء وذوو الحزم يتوعدون بالهجاء، ويحذرون من سوء الأحدوثة ولا يمضون القول إلا لضرورة لا يحسن السكوت

معها»[18]. وما نراه في باب الهجاء حيث يروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: «خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح مثلها»[19].

وهو ما عف لفظه وصدق معناه ومن كلام صاحب الوساطة «فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه، وتسهل حفظه وأسر علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس، فإما القذف والإفحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن»[20].

يوجه ابن رشيق الشاعر في باب الاعتذار فيقول: «وينبغي للشاعر أن لا يقول شيئا يحتاج أن يعتذر منه فإن اضطره المقدار إلى ذلك، وأوضعه فيه القضاة، فليذهب مذهبا لطيفا وليقصد مقصدا عجيبا، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه، وكيف يمسح أعطافه، ويستجلب رضاه، فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ، لاسيما مع الملوك وذوي السلطان»[21].

والملاحظ مم سبق ذكره من المقامات المختلفة التي أوردها واستدل بها ابن رشيق في كتابه العمدة والتي هي: الهجاء، المديح، الاعتذار، النسيب، والوعيد والإنذار، والافتخار والعتاب فهو جاء بها، وقدمها لكي يبين للشاعر أن لكل مقام مقال ويوضح له كيف يتصرف مع كل ظرف ومقام.

من هذه المقامات والتي لها طرائق وأساليب معينة يتخذها سواء من ناحية الألفاظ أو المعاني أو المقاصد، وأعطى لكل مقام منها كيف للشاعر أن يتصرف وأن يعبر وأن يشعر لاستمالة المتلقي وإذعانه وإقناعه والتأثير فيه، فالمقامات تختلف لذا على المتكلم (الشاعر) حسب ابن رشيق أن ينظر إلى ألفاظه ودلالات شعره بحسب الظروف والملابسات المحيطة به، وبحسب غرض الكلام وقصده، فقد فصل وبين وشرح ابن رشيق في كل باب من الأبواب السابقة الذكر كيفية الطرائق الواجب اعتمادها واتخاذها في أحوال الكلام المختلفة بحسب ما يقتضيه الظاهر والظروف الخارجية المحيطة بالخطاب أو الشعر، وفي هذا كله قيم تداولية ومفهوم أساسي تقوم عليه اللسانيات التداولية وهو "المقام"، فهو الأساس في كل خطاب تداولي لأنه يمثل «البؤرة التي تلتقي فيها جميع العناصر الحجاجية من مقدرات برهانية وحقائق فعلية وقرائن بلاغية وقيم بشتى أقسامها، وعلاقة

هذه القيم بمراتب الكائنات والأشخاص المعنيين بخطاب ما»[22]. لذا فدور المقام فعال في كل خطاب بخاصة الخطابات الحجاجية.

إذن اهتمام ابن رشيق في باب البلاغة ومضامينها بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، وبالمقام، يثبت «البعد التداولي لديه، فقد ربطت البلاغة عنده بين التشكيلات الكلامية والمقام وحال "السامع" و"المتكلم" وفي هذا الجانب سنوضح أكثر كيفية اهتمام ابن رشيق بالبنى التركيبية للخطاب والسياقات الخارجية المنسوبة إليه، ومن هذه المكونات والآليات التي تدخل في تركيب الخطاب ومطابقته للمقام هي (التقديم والتأخير، الفصل والوصل، الحذف، الإيجاز والإطناب) وطريقة بروزها في البعد التداولي.

4. الفعل التأثيري عند ابن رشيق:

أسلوب الالتفات:

يعد الالتفات من أضرب البلاغة العربية في تحسين اللفظ وإضفاء رونق وجمال على الأسلوب، فقد تم تعريفه قديما وحديثا، ويقول السكاكي:" واعلم أن هذا النوع أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لاتختص المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني"، كما تحدث ابن رشيق عن الالتفات وجمع أحسن ما قاله الشعراء في محاسن الشعر وآدابه، ولكن ابن رشيق لم يأت بالجديد.

بل أشار بآراء وأقوال السابقين فيقول في تعريف الالتفات «هو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون الاستدراك حكاه قدامة، وسبيله أن يكون الشاعر آخذا في معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول، إلى الثاني فيأتي به ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول»[23].

وما نفهمه من هذا التعريف هو أن الالتفات يأتي في الكلام بتغيير الأسلوب والانتقال من معنى إلى آخر مع الرجوع إليه دون الإخلال بالمعنى، ولهذا الأسلوب غرض بلاغي وهو إيقاظ السامع من الغفلة وتطريب أذنه وما يجدر التنبيه إليه في هذا الجانب أن ابن رشيق كان متأثرا بالكثير من الشعراء مستدلا بأبيات كثيرة منها في باب الالتفات كقول كثير[24]: (من الوافر)

لو أن الباخلين و أنت منهم رأوك تعلموا منك المطالا

حيث يظهر الالتفات في هذا البيت في –وأنت منهم- وهو اعتراض كلام في كلام.

وقد أنشدوا في الالتفات لبعض العرب[25]: (من الطويل):

فظلوا بيوم –دع أخاك بمثله- على مشروع يروي ولما يصرد

وهذا التفات مليح –حسب ابن رشيق- وذلك في قولك: دع أخاك يمثله، وهو اعتراض كلام في كلام ولم يتمم معناه ثم يعود له فيتمه في بيت واحد.

وقد أحسن ابن المعتز في العبارة عن الالتفات بقوله: «أنه انصراف المتكلم من الإخبار إلى المخاطبة، ومن المخاطبة إلى الإخبار وتلا قوله تعالى: «**حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة**».[26] حيث أن بداية الآية:{**هو الذي يسيركم في البر والبحر**}[27] فالمتأمل في هذه الآية الكريمة يلاحظ أنها بدأت بمخاطبة الضمائر في قوله تعالى:(**يسيركم- كنتم**)، ثم تحول الأسلوب إلى كلام عن الغائبين، وذلك في قوله تعالى:(**جرين بهم**)، فانتقل بذلك من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة للدلالة على التبعيد، الوظيفة البلاغية في هذا الانتقال هي المبالغة، حيث يقول البيضاوي:"عدل عن الخطاب إلى الغيبة إلى المبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم"[28].

وقال عوف بن محلم لعبد الله بن طاهر: (من السريع)

إنّ الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقوله (وبلغتها) التفات، وقد عده جماعة من الناس تتميما والالتفات أشكل وأولى بمعناه[29].

وتحدث ابن رشيق عن أسرار بلاغة الالتفات فقال: «ومنزلة الالتفات في وسط البيت كمنزلة الاستطراد في آخر البيت وإن كان ضده في التحصيل، لأن الالتفات تأتي به عفوا وانتهازا ولم يكن لك في خلد فتقطع له كلامك، ثم تصله بعد إن شئت والاستطراد تقصده في نفسك، وأنت تحيد عنه في لفظك حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره أو تلقيه الفاء وتعود إلى ما كنت فيه»[30].

وقد جاء مستدلا بمثال من الأشعار التي تتضمن الالتفات في آخر البيت مثل قول امرؤ القيس[31]. (من الوافر):

أبعد الحارث الملك بن عمرو له ملك العراق إلى عمان

مجاورة بني شمجي بن جرم هو أنا ما أتيح من الهوان

ويمنحها بني شمجي بن جرم معيزهم، حنانك ذات الحنان

التفات[32].

ونرى ابن رشيق في هذا الجانب يتذوق جمال الالتفات والنكتة فيه ويحاول التفرقة بينه وبين ما يقارب بينه وبين غيره من الألوان الأخرى في معانيها.

حيث حقق الالتفات في البيت الأول لـ: "كثير" ما يلي:

حمل المخاطب على الاتصاف بقضية معينة التي يدعو إليها المخاطب تدريجيا، حيث يكون المخاطب غير معني في بادئ الأمر بموضوع الخطاب وثم يصبح مستهدفا ويتحول الخطاب إليه وهنا العدول من الغيبة إلى الخطاب فهذا الانتقال من الغيبة إلى الحضور وتوجيه الخطاب إلى المخاطب ونلاحظ ذلك حتى في البيت الثاني مع «فظلوا يوم – دع أخاك بمثله – فالشاعر هنا بصدد توظيف فعل الأمر –دع- وهو خطاب موجه إلى المخاطب فالانتقال كان من الغيبة إلى الحضور، وهو بهذا الأسلوب الذي تحدث عنه ابن رشيق ألا وهو الالتفات يتفق مع تصور بيرلمان وتيتكاه (c. prreman& l-tyteca) للدور الحجاجي، التأثير الذي يقوم به هذا الأسلوب، وبالتالي فهي نقطة تلاقي مع اللسانيات التداولية في دور الالتفات في التأثير وتحسين اللفظ وتنميق الخطاب واستمالة السامع وهو أيضا يحفل بالكثير من القيم والأهداف التداولية».

5.خاتمة:

نخلص في الأخير إلى أن ابن رشيق في كتابه العمدة قد اهتم بجميع أركان العملية التواصلية بداية من المتكلم «الشاعر» والسامع والآداب التي تقتضي على المتكلم أي الشاعر أن يتحلى بها في تأدية شعره أو تأليفه أو إلقائه، والصياغة الكلامية بالإضافة إلى اهتمامه بالمقام والسياق الذي يرد فيه الشعر وذلك كله بهدف تحقيق الغرض التواصلي من هذه العملية ونجاعتها، فلقد حاول أن يوضح السبل التي تجعل من الشاعر مبدعا وعارفا للأساليب البلاغية ويقدم تعريفات ويستند إلى أمثلة سواء أبيات شعرية لكبار الشعراء أو من القرآن والحديث النبوي الشريف ويبين أيضا للشاعر الإستراتيجية والأساليب التي يعتمدها ويضمنها في شعره كي يكون مقبولا مفهوما يحمل في طياته قصدا ومعنى، وبالتالي يراعي الشروط التداولية المتعلقة بالمتكلم والسامع والمقام، فيتحسن من قدرته التداولية ليصل إلى ذروة النجاح

وقد تمخض عن هذا البحث في دراسته لهذا الجانب نتائج كانت كالتالي:

- العملية التواصلية عملية تحمل أبعادا تداولية في صميمها، لأنها تقوم على العناية بأهم عناصر العملية الخطابية والتي تهتم بدورها بالخطاب –أي باللغة- والتي تعنى بها التداولية أثناء استعمالاتها المختلفة مع مراعاة المقاصد والغرض من ورائها.

- اهتمام ابن رشيق بعملية القصد والإفادة، وتوجيه الشاعر إلى الاهتمام بهما وإدراجهما في شعره بغرض إيصال شعره إلى ذهن السامع وتقبله والتأثير فيه.

كشف لنا البحث عن احتواء التراث اللغوي العربي على آليات وأفكار تداولية منها اعتماد ابن رشيق على الأبعاد اللغوية.

6. الهوامش:

1 العمدة في محاسن الشعروآدابه ونقده:أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، ج1، ص 204.

2 المصدرنفسه، ج01، ص 196.

3 المصدرنفسه، ج 1، ص 199

4 المصدرنفسه، ج 2، ص 46.

5 المصدرنفسه، ج 2، ص 205.

6 المصدرنفسه، ج02، ص 212.

7 المصدرنفسه، ج02، ص 213.

8 بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، ط01، بيروت، 2004، ص 299.

9 المصدرنفسه، ص 26.

10 العمدة: ابن رشيق، ج01، ص 199.

11 موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون: محمد علي التهاوني، تق وإش ومر: رفيق العجم، تح: علي دحروج، ج02، مكتبة لبنان ناشرون، ط01، بيروت-لبنان، 1996، ص 163.

12 العمدة: ابن رشيق، ج02، ص 116.

13 المصدرنفسه، ج02، ص 117.

14 المصدرنفسه، ج02، ص 128.

15 المصدرنفسه، ج02، ص 143.

16 المصدرنفسه، ج02، ص 147.

17 المصدرنفسه، ج02، ص 160.

18 المصدرنفسه، ج02، ص 167.

19 المصدرنفسه، ج02، ص 170.

20 المصدر نفسه، ج02، ص 171.

21 المصدر نفسه، ج02، ص 176.

22 مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة: محمد سالم ولد محمد الأمين، مجلة عالم الفكر، العدد (03)، يناير مارس، ج28، 2000، ص 83.

23 العمدة: ابن رشيق، ج02، ص 45.

24 المصدر نفسه، ج02، ص 45.

25 المصدر نفسه، ج02، ص 45.

26 سورة يونس: الآية22.

27 سورة يونس: الآية22.

28 ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي(ت691هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، إعداد وتقديم:محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت/لبنان، ط1، ص449.

29 العمدة: ابن رشيق، ج 2، ص 45.

30 المصدر نفسه، ج 2، ص 45.

31 ديوان امرؤ القيس: ضبطه: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 44.

32 العمدة: ابن رشيق، ج 2، ص 46.